كلمة أخيرة

عزيزى القارىء :

فى سنة ١٩٦٦ رسمت الخطوط العريضة لهذه الحلقة من هذا الكتاب ، ثم بدأت فى كتابة الفصول ، وقد تناولت أغلبها . منها ما كتبته بصورة تكاد تكون نهائية ، ومنها ما يشبه أن يكون رموزاً أو علامات على مواضيع . واستمر البحث والمراجعة فى المصادر ـ المصادر المكتوبة والمصادر المصورة ، والمصادر الحية المتحدثة ـ وكنت كثيراً ما أعود على ما كتبت بالتغيير والتصحيح حتى خيّل إلىّ أننى وضعت الكتاب على شبه الصيغة النهائية ، ولم يبق علىّ إلا أن أعرضه أو بعض فصول منه على أحد شيوخى لأطمئن إلى عملى . وركنته فى زاوية انتظاراً لفرصة لقاء . وعندما أعلن أستاذنا الفاضل الإمام بيوض إبراهيم بن عمر عزمه على زيارة ليبيا فى صيف ١٣٩٢ هـ ، توقعت أن تتاح لى فرصة معه ، ولكن تلك الفرصة لم تسنح لى أبداً ، فقد كان وقته ـ طيلة الأسبوعين ـ مزدحماً مشغولا ، فلم يتم لى ما رجوت وكان ضياع هذه الفرصة منى داعياً لأن أعيد النظر فيها نظرة أخيرة فيما حسبت . وقد فعلت .

وفى صيف سنة ١٣٩٦ هـ أتيح لى أن أزور الجزائر وأن أبقى فى الواحات لمدة أسبوعين وأن ألتقى بعدد من العلماء والمشائخ وأتيحت لى فرص لقراءة بعض الفصول على بعضهم واستفدت كثيراً من نصائحهم وتوجيهاتهم وتصحيحاتهم ، فقد قرأت كل ما يتعلق بالدولة الرستمية على كل من الشيخين الفاضلين الإمام بيوض إبراهيم والشيخ باكلى عبد الرحمن حفظهما الله

ورءاها، وقرأت أكثر الفصول الأخرى على الشيخ باكلى عبدالرحمن وقرأت الفصول المتعلقة بوارجلان على الأستاذ الشيخ أبى معقل عمر بن داوود وعلى الأخ المؤرخ البحاثة الشيخ سليمان بن الحاج داوود وقرأت مسودة فصل الجهاد على الشيوخ الثلاثة أفلح وابن يوسف وباكلى كما قرأته على الأخ الشيخ إبراهيم قرادى .

أما الفصول : ميزاب فى نظر مستغرب ، بنو مصعب والغربة ، المرأة الميزابية والغربة ، المؤسستان الثانية والثالثة . هذه الفصول لم يطلع عليها أحد منهم لأننى كتبتها بعد رجوعى من الرحلة .

ولاشك أن القارىء يعرف أننى بعد زيارتى أعدت صياغة بعض الفصول وصححت بعض الآراء وحققت بعض المعلومات . ولكننى مع ذلك لم أستطع أن أبلغ به مافى نفسى . وكل ما أستطيع أن أعتذر به فى هذا المقام أن أقول : أنى بذلت جهداً غير قليل فى إخراج هذا العمل إلى حيز الوجود . ولو لم يكن فيه من جهد غير نقله عدداً من المرات لكان عملا مضنياً . وقد بقى بين يدى نيفاً وعشر سنوات وكنت كلما تناولته أو تناولت بعضه بالصقل ظننت أنه صار أفضل وأحسب الآن أنه على وضعه الموجود هو أفضل مما كان قبل ذلك ، ولو تناولته بالتحقيق والتصحيح من جديد لوجدت فيه مايستحق التغيير ولصار بعد ذلك أفضل مما هو عليه الآن . ولكننا لو سرنا على هذا الأسلوب نشتغل بالتصحيح والتحقيق حتى نصل إلى اللحظة التى نبلغ فيها الكمال . ونحوز الرضا التام فيما نقدمه من عمل . لما وصلنا إلى تلك اللحظة أبداً . ولما أنجز لنا عمل أبداً .

وإذا وجد من يقول عن نفسه : إنه بلغ مرتبة الكمال ، فى عمل من

الأعمال ، فذلك أحد رجلين : إما رجل يعرف عن نفسه القصور فهو ينفخ فيها بالشجاعة خوف الإحجام . وإما رجل لا يعرف معنى الكمال ولا يقدره . وقد عرفت أناساً يريدون أن يخرجوا أعمالا يصلون فيها إلى الكمال فأمضوا زيادة عن عشرين سنة يجمعون الحقائق حتى ذهب نور أبصارهم ولم يخرج عملهم ذلك إلى النور . ولو أتيح له أن يخرج لكان صاحبه أول من يحس بالنقص فيه .

وإذا وجدنا من الكتّاب من يدعى الكمال ويزعم الوصول إلى عين اليقين . فى كل ما يقول . فأنا لا أملك عنده الجرأة ولا أحسن هذه الدعوى. وأعترف بصراحة صادقة أن فى عملى هذا كثيراً من النقص منه ما أعرفه ولم أتمكن من إتمامه ، ومنه مالا أعرفه وقد يعرفه القارىء ، ومنه ما قد يخفى عنى وعن القارىء إلى حين .

وعلى جميع الأحوال فهو محاولة أرجو أن يستفيد منها مع يقتنع منهم بالبسيط وأن يجد فيه حملة الأقلام ما يستعينون به على شق طرق جديدة فى منهج جديد لدراسة اجتماعية متكاملة مبنية على أحداث تاريخية فى جانب من المجتمع الإسلامى لم يجد بعد العناية الكافية من أقلام صادقة تكتب بالحق وتسعى وراء الحق . رغم ما كتبت عنه وفيه . .

فإذا لم يجد فيه القراء وحملة الأقلام جدوى ولو قليلة فهو ليس أول عمل تافه يقدمه إنسان وهو يعتز به وإنى ـ على شدة الخجل من التصريح بالاعتزاز بعمل من أعمالى ـ لأعتز به على مافيه ، وأرجو أن يكون من حسناتى عند الله .

كلمة الختام

عزيزى القارىء :

إنى أحمد الله تبارك وتعالى الذى ساعدنى حتى أنجزت هذا العمل وقدمته إليك كما هو الآن . . .

وإن كل ما أطلبه منك ـ وقد قرأته ـ إذا لم يعجبك ، ولم يحز رضاك. أن تدعو الله لى مخلصاً حتى يوفقنى إلى تقديم ما يرضيه ويرضيك عنى مستقبلا. فإننى قد عزمت أن لا أتركك أيها القارىء الكريم مادمت أقوى على الكتابة .

وما دمت لا تستطيع أن تتخلص من هذا العبء الثقيل الذى ألقيه على عنقك فما عليك إلا أن تتجه إلى من بيده الأمور ليجعله عبئاً يسيراً تقبل عليه نفسك ويرتاح إليه مزاجك وتحصل منه على بعض الفائدة .

وأخيراً أضرع إليه تبارك وتعالى كما يسّر لى إنجاز هذا العمل الضئيل أن يفيد به ، ويجعله دعوة إلى توحيد الصف ، وإلى الاقتداء بخير السلف ، وإلى الاهتداء برسول الله ، وإلى الاعتزاز ـ فقط ـ بالله، وأرجو منه تعالى أن يتقبله منى خالصاً لوجهه الكريم ، فإنه نعم المولى ونعم النصير . وهو حسبى وكفى به وكيلا .